الفصل الرابع

نظرية الصراع والردع ووضع الأمة فى الواقع الدولى

المبحث الأول

نظرية الصراع وتسوية المنازعات فى القرآن والقانون

نظرية الصراع بين الأفراد والدول بسبب تضارب المصالح حقيقة قائمة ويؤكد ذلك قول الله تعالى ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ (الاعراف ٢٤)

ولم تشفع الأخوة فى البشرية المبكرة بين هابيل وقابيل حيث سول الشيطان لقابيل حقدا وحسدا قتل أخيه لأن الله تقبل قربان أخيه ولم يتقبل قربانه هو ولاعبرة بما دسه بعض المحرفين من دوافع أخرى، حيث يكفى ما ورد فى القرآن الكريم. وصور القرآن الإنسان بأن خلقه وأودع فيه الخير والشر وألهم الله النفس البشرية الشر والخير﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ (الشمس آية ٨)، وعلى الإنسان أن يختار حتى يصادق الله على قراره ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس ٩،١٠). فالله يحترم قرار الإنسان ويعينه ويسهل له طريق تنفيذ هذا الاختيار، أو كما قال الامام الشعراوي هناك هدايتان الأولي هداية الطريق وهداية التوفيق.

وفى القرآن نظرية التدافع المعبرة عن نظرية الصراع ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**﴾ (الحج ٤٠). ولذلك كان تأكيد القرآن على قيمة الإيمان بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وقسمه على صحة قوله **تعالى** ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ (الذاريات ٢٣,٢٢).

فالخلاف والصراع والقتال والعنف طبيعة أخرى فى البشر يقابله عكسها تماما ويركز الدين على تنمية وإظهار الخصال النبيلة حتى تطغى على الخصال السلبية وقدم للإنسان صورة واضحة للصراع بين الخير والشر على أنه صراع عند الإنسان بين الله وإبليس، كما قدم القرآن جوائز عديدة للمؤمنين بوعد الله لينحازوا إلى الخير، بل إنه قرر القصاص فى القتل، حماية لمجمل النفس الإنسانية التى كان القتل لها جميعا رغم أنه قتل لنفس واحدة، والمؤكد أن النفس البشرية الأولى فى آدم التى تناسلت الأجيال منها، حفظت خصائص الخلقة الأولى من تراب ثم تناسل بالتزاوج بعد أن خلق من النفس الأولى لآدم زوجه وهو أبدع تصوير للعلاقة الحميمة بين المرأة والرجل، فهما من نفس واحدة ومن العبث أن نذهب مع البعض من أن المرأة تابعة للرجل بحكم الخلقة، فلا بقاء للنوع بأى منهما وحده. ورغم هذه العلاقة الجنينية الحميمة وتفرع نفس المرأة من نفس الرجل، فى الخلقة الأولى، ثم نمو الرجل فى بطن المرأة يتغذى مما تتغذى به ويظل بعد الميلاد عالقا بها مرحلة الرضاعة، أقام الله علاقة خاصة بين المولود وأمه واختص الأم بالإكرام والبر، وإن سوى القرآن بين الأم والأب بصفتهما والدين، وجعل البر بهما قرينا بالإيمان بالله، كما أن عقوقهما جريمة تلى الكفر بالله مباشرة.

وإذا كان الصراع والعداء يدب بين الرجل والمرأة الزوجة وحدها وليس بين الرجل وطوائف النساء الأخري، الأم والأخت والبنت، فما بالنا بالصراع بين آحاد الناس والأمم والشعوب والدول.

فالصراع حقيقة كونية، المهم كيف نتفادى آثاره السلبية وننتزع أسبابه بالطرق السلمية؟.

أولاً: الشقاق بين الزوجين

وسمى شقاقا لأنه شرخ لنفس كانت واحدة، وجذب الله كلا للأخري وحببهما لبعضهما البعض من أجل استمرار النوع ولكى تكون شركة ناجحة لتمكين الأجيال من الاستمرار فى بيئة اجتماعية مناسبة، فإذا حدث نزاع بين الزوجين، ومفردها زوج دلالة على المساواة بينهما فى المقام والمكانة حث القرآن على الإلحاح على تسويته وألا تترك فرصة مهما صغرت لاستمرار الحياة الزوجية.

وجعل الإسلام الطلاق بينهما أبغض الحلال عند الله، وأن يكون قطعا لتدهور العلاقات،إذا استحالت العشرة بينهما ، وأن يكون قدر المستطاع لصالح الأبناء. وأبرز القرآن أهمية التحكيم بين الطرفين، بأن يختار كلاهما الأصلح للحديث نيابة عنه مع الطرف الآخر، لعل الطرفين يصلان إلى نتيجة إيجابية، والأمل أن يكون دافعهما أن يلتئم الشقاق وتعود العلاقات بين الزوجين إلى طبيعتها. وشدد القرآن على نية طرفى التحكيم بقوله إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما، كما أتاح الإسلام صورا متعددة لحل عقدة النكاح وحفظ لكل الأطراف حقه فى حالة انهيار الشراكة الزوجية. وذكر القرآن الطرفين بأن الله أحل العلاقة المحظورة أصلا قبل الزواج بكلمة الله، ولذلك عندما ينقطع الأمل فى وصلها لا ينسى كل منهما الفضل بينهما ويكون المعروف هو الحاكم فى هذه

النفسية المتوترة، حيث جعل الله بينهما مودة ورحمة، فلا يجوز أن يكون الشقاق نسفا لهذه المودة والرحمة، وأن يحل محلها الانتقام والشرور كما يحدث فى أيامنا.

استلهمت تشريعات الأحوال الشخصية فى العالم الإسلامى هذه القواعد السامية قدر المستطاع.

ثانيا: الشقاق بين طوائف الأمة الإسلامية

الأمة الإسلامية يفترض أنها تدرك نظرية الصراع والتدافع كما تدرك أن الإسلام دين السلام الكريم وليس دين العنف فحث الأمة فى صراعاتها مع غيرها من الأمم أن تراعى الأصول العامة وهى أن النفس واحدة سواء فى أمة إسلامية أو غيرها، وأن التشديد على قدسية النفس الإنسانية مطلقة لا تقتصر على نفس مسلمة أو مؤمنة وأخرى غير ذلك. ولذلك شدد على مبادئ القانون الإنسانى كما نسميه فى أيامنا، مثلما شدد على قواعد النبالة والمروءة بالنسبة للمخالفين وأطراف الصراع الآخرين، فوجه الرسمول إلى أن يؤمن المستجير بين المشركين حتى يبلغ مأمنه وجعل الرسول الكريم عقد الأمان فى ذمته شخصيا تأكيدا على مكانته وضرورة احترامه وعدم المساس به.

وحرص القرآن على رأب الصدع الذى قد يحدث بين طوائف الأمة فأشار إلى أنه إذا وقع قتال، وهو أعلى درجات الصراع، بين طائفتين من المؤمنين، أى بعد أن فشل إيمانهم في لجمهم عن الاندفاع لقتال بعضهم بعضا خلافا لما امتدح الله المؤمنين بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، على أساس أن الصراع هو على عرض الدنيا، والعاقل هو من أعرض عنها لكى لا يضيع وقته فى الدنيا ويصرفه عن الاستثمار فى الآخرة. فألزم القرآن بقية المؤمنين على أن يصلحوا بينهما أى أن يسووا وديا الصراع وتصفية أسبابه

إمتثالا لتوجيه الرسول الكريم أنصر أخاك ظالما أو مظلوما، وقدم الأخ الظالم على المظلوم لأنه هو لب الحديث ومعضلته، فشدد الرسول على أن يأخذ الناس على يدى الأخ الظالم، فيكون القرار كافيا لكى يرتدع الأخ الظالم: فيكف عن ظلمه حتى قبل أن تتصدى له جماعة المؤمنين. فإذا أصرت فئة على القتال حتى لو كانت الفئة المظلومة، تحولت إلى فئة باغية، فتتحول الجماعة كلها للتصدى بالقتال للفئة التى ترفض الصلح.

فالوساطة بين الطرفين المتنازعين التزام على الجماعة المؤمنة، ثم يتحول الوسيط إلى طرف منضم إلى الطرف الذى قبل الصلح ضد الطرف الذى استمر فى القتال فصار فى هذه الحالة طرفا باغيا.

ومن أسف أن الآية الكريمة ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ ، قد فسرت فى الواقع تفسيرات سياسية لدعم أحد الأطراف فى القتال فى حروب المنطقة.

المبحث الثانى

نظرية الردع فى النسق القرآنى والسياق القانونى

يقول الله فى كتابه الكريم ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ۚ﴾ (الأنفال ٦٠). وقد ترجمت كلمة ترهبون ترجمة عادية على أنها يرهب terrorize فاستغل البعض هذا المصطلح فى حملته ضد الإسلام ووصمه بالإرهاب وزعم أن الله يحث المؤمنين به على أن يمارسوا الإرهاب ضد أعدائهم وأعداء الله.

هذا التفسير لا يفيد مطلقا علاقة الإسلام بالإرهاب، لأن عدو الله وعدوكم وصف للمعتدى سواء كان مؤمنا أو كافرا لأن القرآن يشدد على عدم العدوان، كما أورد القرآن نظرية التدافع والتوازن فى قوله تعالى ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾ وفى آية أخرى ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا** ۗ﴾ فالتدافع يؤدى إلى أن تصدي القوى بعضها لبعض حتى لا تتغول قوة واحدة فيقع الظلم من جانبها.

وآية الإعداد للقاء العدو المتربص تفترض أن هناك طرفين أحدهما يهم بالعدوان ويستعد له فهو معتد محتمل والطرف الثانى هو الضحية المحتمل فأمر الضحية المحتمل بأن يبذل أقصى درجات الاستعداد والتحصن توقيا للمفاجأة، وعلى هذا الطرف أن يتعمد أن يظهر للمعتدى المحتمل درجة استعداده لمواجهته، وفى هذه الحالة، إما أن يعدل هذا المعتدى المحتمل خطط العدوان خشية الخسران بسبب قوة الطرف الآخر الظاهرة، وإما أن يصر على

العدوان، فتقل خسائر الطرفين بسبب توازن القوى. فى هذه الفرضية يؤدى استعداد الضحية المحتمل إلى إرسال رسالة واضحة تبعث الرهب والرعب فى قلب المعتدى المحتمل لعله يقرر الكف عن العدوان، وهذه الحالة يتم فيها ردع الطرف المعتدى المحتمل عن مواصلة خطط العدوان. ومادام المعتدى يخطط للعدوان، فمن العدل أن يتخذ الضحية المحتمل كل ما من شأنه أن ينزل الرهب والفزع فى قلب المعتدى المحتمل. "وترهبون" فى الآية الكريمة تشير إلى الأثر النفسى وهذا يختلف اختلافا تماما عن الفعل الإرهابى.

صحيح أن العمل الإرهابى يصيب الجسد والنفس معا إلا أن الإرهاب فى الآية يقتصر على التأثير فى النفس بقصد الكف عن العدوان، وليس ابتدار الطرف البرئ بهذا الأثر المفزع. من ناحية أخرى، العمل الإرهابى عمل عدوانى من طرف ضد طرف آخر، بينما أثر الاستعداد المرعب للطرف الثانى ينطوى على معانى سامية وهى دفع الطرف الآخر الى الكف عن عدوانه الماثل، ثم أنه شعور يصيب المعتدى المحتمل تعمد الضحية المحتمل أن يوجهه ويحدثه لدى الطرف الآخر ليوقف خطط العدوان، فهذه الرسالة التى يحملها الاستعداد يجب أن تحمل درجة عالية من الرهب والخشية حتى تحدث أثرها فى تعديل خطط العدوان، وهى إلى ذلك دفاع شرعى عن النفس. فإذا لم يحدث استعداد الضحية المحتمل هذا الأثر المنذر عند الطرف المعتدى المحتمل لم يخسر الطرف الأول شيئا، وإنما يكون قد أخطر المعتدى المحتمل بعزم الضحية المحتمل على مقاومة العدوان إن وقع.

أما التفسير الدينى لنظرية الردع هذه فتنطلق من حقيقة ثابتة وهى أن الله خالق النفس سواء كانت معتدية أو ضحية، وأن النفس تحمل روح الله مع

الجسد يستوى فى ذلك النفس المؤمنة والنفس المشركة أو الكافرة، ولذلك أظهر القرآن الكريم حرصا فائقا على هذه النفس واعتبر أن قتل نفس واحدة ظلما هو قتل لكل النفوس يستوجب القصاص، ومن أحيا هذه النفس فكأنما أحيا الناس جميعا. ومادامت نفس المعتدى والضحية فى نفس القداسة عند الله فقد أراد الله أن يعصم هذه النفس ودماءها فى المعسكرين لعل استعداد الضحية يردع المعتدى عن المضى، فيتم عصمة النفس فيهما معا.

وإذا تأملنا الآية الكريمة اتضح ما يلى:

أولاً: أن الآية تخاطب معسكر الضحية الذى يعد الطرف الآخرليعد العدة للعدوان عليه، وأن استعداد الطرف الضحية موجه إلى الطرف المعتدى وحده "وأعدوا لهم" حتى ترهبون بهذا الاستعداد عدو الله وعدوكم وآخرين مرتبطين ومتحالفين معهم من المنافقين وربما فى معسكر الضحية نفسه مما نطلق عليه هذه الأيام الطابور الخامس، وهو الذى سوف يسارع إلى نقل أخبار استعداد الضحية إلى المعتدى.

ولذلك فإن الترجمة الصحيحة لكلمة ترهبون هى إما بالمفهوم الذى قدمنا أى الأثر النفسى المترتب على عمل مشروع فى نطاق الاستعداد للدفاع عن النفس وليس الفعل الإرهابى الذى عرفه الناس عبر التاريخ. كذلك يجوز أن نترجم كلمة ترهبون بمعنى تردعون ولكن الأدق ترهبون لأن الردع أثر من آثار الشعور بالرعب والفزع الذى يحدثه الاستعداد، وقد يحدث الرهب ولايحدث الردع فالأصح فى الترجمة والأدق فى المعنى هوترهبون.

لكن ليس هناك ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن القرآن يحث المؤمنين به على الإرهاب.

دروس الدبلوماسية النبوية فى رحلة الحديبية فى الواقع المعاصر

رحلة الحديبية معين لا ينضب من الدروس والعبر التى نحن أحوج ما نكون إليها فى سياساتنا الحاضرة، فتلك الأحداث الكبرى لا تروى للتسلية وإنما لا ستخلاص العبر. وما بين ماض غنى وحاضر مضطرب، فإننا بحاجة إلى أن نقرأ الماضى قراءة صحيحة بقصد الاستفادة والاعتبار وليس للنسخ والنقل مع اختلاف العصور والأزمان.

ما كتب عن الحديبية يملأ آلاف الصفحات ولكن الأهم ما يستفاد منها. والكتابة عن رحلة الحديبية كما أسماها الأستاذ العقاد تشتمل على الرحلة من بدايتها حتى نهايتها بما فى ذلك وثيقة الصلح والمفاوضات حولها. ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام نموذجاً يقتدى حتى فى هذه الرحلة الهامة فى تاريخ الإسلام. فالمعلوم أن المسلمين فى مكة اضطروا للهجرة إلى المدينة المنورة عندما ضيق كفار مكة عليهم.ففروا بدينهم الجديد وهم بعد قلة مستضعفة الي رحاب اوسع وانصار ومناصرين. وبعد أن تقرر الحج وتحويل القبلة إلى مكة، اعتزم الرسول الكريم وصحبه أن يذهبوا إلى الحج. الحاج لايكون حاملاً للسلاح. ولذلك، وهو الدرس الأول، أعلن رضوان الله عليه ذلك بكل الطرق بانه ذاهب للحج لا للقتال ،وأبلغ مكة أنه لا يمكن أن يخاتل فى مسائل العبادة، أى أنه لا يمكن أن يعلن نيته فى الحج، بينما هو فى الحقيقة يريد غزو مكة، فاتجه المسلمون وغيرهم إلى مكة، معتمرين غير مسلحين، ولكن كفار قريش منعوهم من أداء فريضة الحج، رغم أن البيت الحرام مقدس

عند الجميع حتى قبل الإسلام. وكان عليه الصلاة والسلام يتوقع هذه الخطوة، ولكنه كان ينظر نظرة استراتيجية، فالرحلة ليست نهاية المطاف، وأن الرسالة ستبلغ غايتها فى مكة وما وراءها بكثير.

والدرس الثانى هو ما فصل فيه الأستاذ العقاد فى دراسته لعبقرية محمد السياسية، وهو أن النبى عمد إلى دعوة المسلمين وغير المسلمين إلى الحج، فالحج ليس قاصراً على المسلمين، وليس قاصرا على قبيلة بذاتها، لأن القبائل توزعت بين الكفر والشرك والمسيحية واليهودية والابراهيمية وغيرها من العقائد المنتشرة فى الجزيرة على اتساعها. وبذلك يكون قاصدوا الحج من المسلمين وغيرهم جبهة واحدة لحق الجميع فى العبادة فى مواجهة أصحاب السيادة علي البيت الحرام وحتى لا تكون السيادة السياسية لمكة شاملة للسيادة الدينية، فحراس البيت عليهم ألا يحولوا بين البيت وضيوف رب البيت من كافة النحل والملل والعقائد، وهذا التفكير الاستراتيجى جعل موقف قريش معاديا بعد ذلك لجبهة عريضة لأن قريش منعت الحجاج جميعا ولم تميز المسلمين عن غيرهم، مما اربك قريش وغيرها من القبائل واختلفوا حول رد الفعل الواجب على قدوم الحجيج.

أما **الدرس الثالث** فهو المرونة الفائقة التى أبداها النبى مع مفاوض الكفار، فهو يمثل، صاحب السيادة على البيت الحرام، والرسول الكريم يمثل ضيوف الرحمن. هذه المرونة الفائقة التى أبداها الرسول الكريم مع المفاوض هى التى جعلت أصحابه يضيقون بهذا الاتفاق وينكرون الطريقة التى تم التفاوض بها عليه، وكادت الحادثة أن تحدث شقاً بين كبار الصحابة وتمزق وحدة المسلمين فى معسكرهم. وقد ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه

بأنهم جاءوا إلى مكة حجاجاً لاغزاة ولذلك أعلنوا منذ البداية أنهم بلا سلاح ولايخشون عدوان مكة عليهم لثقتهم فى نبل أهلها ونخوتهم التى تأبى عليهم هذا العمل الوضيع.

فهل المسافة الشاسعة بين موقف النبي وموقف أصحابه هي المسافة بين صاحب الوحي والتبصر بالمستقبل وبين التقديرات البشرية مهما كانت عبقريتها أم ياتري هو ذلك الفارق بين درجات الايمان والثقة في الله بين النبي واصحابه. بل نشير الي بيعة الشجرة التي جدد الصحابة فيها الحب والثقة بصاحب الرسالة ، ثم بشروا باية من الله قبل حدوثها بعامين. وقد يقول قائل ان الطابع النبوي كان نورا اهتدي به صاحب الرسالة ، مما يضع سلوكه فوق المستوي العادي للبشر.هذا الافتراض يقودنا لتدبر المناسبة الي افتراض اخر وهي ماذا لو لم يكن الرسول قائد الرحلة وقد فاجاتهم قريش فاستقبلتهم استقبال المحاربين ،فان ابا بكر كان مرشحا للتعامل مع قريش وهو بعيد عن قائده لايملك تعليمات فورية في هذا الموقف الحرج. وهل كان موقف ابي بكر الرصين الواثق المماثل لموقفه من خبر الاسراء والمعراج علي خلاف موقف عمر الذي غلبه ايمانه علي شبهة الشك في الرسالة لكي يعطي مؤشرا لما استجد يوم السقيفة فبايع الصحابة ابا بكر اضافة الي مؤشرات التوجيه النبوي في هذا الاتجاه.

فهل ما أسلفنا بحاجة الي استخلاص الدروس علي سبيل الإيجاز أم أن العرض قد يوحي بحسب المواقف المتغيرة بدروس أخري فلا نصادر علي حق القارئين في الاستخلاص أو أن نحصر فكرهم في سياق معين.

وختاما اكان الوحي ام المهارة السياسية هي التي فسرت الدبلوماسية النبوية؟.فليحذر الذين يعلون من القدرات البشرية للرسول لينكروا عليه شرف الرسالة وكذلك فليحذر الذين ينسبون كل شيء للرسالة مكرا من عند انفسهم ليجعلوا التكليف مستحيلا علي البشر: فكلا الفريقين ضل سعيهم وطاشت سهامهم في العالمين.

obeikan.com

المبحث الثالث

وضع الأمة الإسلامية وتحديات الواقع الدولى

معانى الأمة فى القرآن الكريم:

استخدم القرآن الكريم كلمة "أمة" فى سياقات مختلفة. منها فى السياق الطبيعى السوسيولوجى ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ فالأمة هنا هى مجموع المسلمين فى كل مكان على الخريطة وهو المعنى الذى قصده الحديث الشريف من أن الدخول فى الإسلام يصنع أمة متراحمة ومترابطة ومتعاونة، فأحل رباط الإيمان برباط القواسم المشتركة فى الثقافة واللغة والعيش المشترك، وإن كان معنى الحديث حينذاك منصرفا إلى تجمع المسلمين لملاقاة الكفار فى مكة والمدينة، ولكن النصوص القرآنية والأحاديث وإن ارتبط بعضها بسياق معين، إلا أنها تظل وتتجاوز المعنى الذى نزلت به. "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى." وقد استخدم مصطلح "المؤمن" لكى يشمل، فيما نعتقد، كل المؤمنين حقا بالشرائع الأخرى على أساس أن الدين واحد والإسلام واحد.

المعنى فى قوله تعالى ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ ويشير إلى أمة محمد التى يجب أن تشمل بقية الأمم وشرائع أخرى واستجابت للأنبياء والرسل السابقين الذين دعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد. ويفهم من الأية وكما فى آيات أخرى ستأتى كل أمة ومعها نبيهم

يوم القيامة وتأتى أمة محمد ومعها رسولها، لكى يكون شهيدا على من سبقه من الأنبياء والرسل، وعلى أمته، التى ستكون شهيدة على الأمم الأخرى. ولذلك أكد القرآن من أجل عدالة الحساب على أن الله أرسل لكل قوم نبيا منهم وسيسأل خزنة جهنم المكذبين يومها ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ فالأمة فى هذا السياق هى أتباع كل نبى ورسول.

وفى معنى ثان هو النوع من المخلوقات كما فى قوله تعالى ﴿**إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ۚ﴾ وهم يسبحون ولكنكم لا تفقهون لغتهم، فلكل نوع من المخلوقات، الجماد، والحيوان والنبات لغة يتواصلون بها. وكان سليمان هو الذى أنعم الله عليه بأن علمه لغات المخلوقات، الطير، والحشرات والجن وغيره، وسخرها له، بما فى ذلك الريح رخاء لينة فى يده ووفق تعليماته.

فى معنى ثالث استخدم القرآن مصطلح الأمة للدلالة علي الزمن والمدة كما فى قوله عن صاحب يوسف الذى كان سجينا معه وأوصاه يوسف أن يذكر الملك بسجنه، مادام قد أنبأ يوسف بتأويل رؤياه بأنه سوف يكون ساقى الملك. فاعتمد يوسف على هذا الصاحب ونسى أن الله يرقبه وهو الذى يذكر به وأبقاه فى السجن لحكمة يعلمها فقال سبحانه ﴿**وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**﴾" والأمة هنا فترة من الزمن طالت أم قصرت.

وفى معنى رابع الأمة هى القوم لقوله تعالى ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا**ۖ﴾

وفي معني خامس إ﴿**نَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ**﴾ والكلمة تعني أنه كان بمقدار أمة كاملة في ثقل ايمانه ، كما يجوز أن يكون المعني أن ابراهيم أبو الأنبياء الذين شيدوا أمة الاسلام التي ختمها القرآن ومحمد.

وفي معني سادس في قوله تعالي ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ**﴾ ، أي مجموعة لكي تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وهي مجموعة حافظة للشريعة وتنوب عن المجتمع المسلم في هذه المهمة علما بان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين ولكن هذه الاشارة لاتعطي سلطة لمجموعة علي تفصيل لا يتسع له المقام.

واشارة القران ولكل امة جعلنا شرعة ومنهاجا تنطبق علي كافة المخلوقات وهو معني يلحق بالمعني الذي قدمنا.

معنى الأمة فى الاستخدام السياسى والقانونى المعاصر

الأمة هى مفهوم اجتماعى يشير إلى جماعة الشعب فى دولة، ولذلك فالامة بالمفهوم الحديث مرتبطة بالدولة، فلم يحدث أن اعتبرت جماعة الناس أمة بسبب العرق إلا الجماعات التى تنتمى إلى عرق واحد ولكنها تشتت بين الدول، فظهور الدولة استبعد القبلية والطائفية الدينية والعرقية، ولذلك صارت الولايات المتحدة التى تضم كل أجناس الأرض وديانات ومعتقدات الدنيا أمة واحدة انصهر الجميع فى نظامها القانونى والسياسى وطرائق عيشها.

والعلاقة بين الدولة والأمة تتخذ ثلاثة أشكال فى الاستخدام الحديث الذى بدأ باعتبار الدولة هى الأساس، وأنها الشخص القانونى المعتد به فى العلاقات الدولية. الشكل الأول أن تكون الأمة دولة مثل الأمة العربية التى تريد أن تقوم لها دولة واحدة تنهى تقسيمها وتفتيتها كما حدث فى خطة سايكس بيكو. الشكل الثانى هو أن يصير الجميع فى دولة واحدة أمة، لكن الدولة سبقت الأمة وصارت الدولة وعاءا للجميع الذين يشكلون معا رغم اختلافاتهم أمة واحدة. الشكل الثالث أن تضم الدولة أمما حقيقية رغما عنها كما حدث فى الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الروسية وغيرها، فلما تفتت الاتحاد

السوفيتى والاتحاد اليوغوسلافى، صارت كل أمة دولة مستقلة. ولكن الخطر يبدو فى افريقيا التى تضم قبائل وعشائر وأقليات عرقية وفى إطار دول ضعيفة وتريد كل منها أن يكون لها دولة مستقلة، وهذا الخطر قائم بسبب هيمنة الروح القبلية على إدارة الدولة والفساد والعجز عن التنمية وإنشاء نظام سياسى يستوعب الجميع بعيدا عن دعاوى التشرذم، وهو ما حدث فى جنوب السودان الذى تفاعل فيه ثلاثة عوامل لانفصاله، الأول المؤامرة، والثانى الطبيعة، والثالث عجز حكومة الخرطوم الدائم عن تقديم صيغة ديمقراطية تتلازم فيها السلطة والثروة.

خريطة العالم المعاصر لا تعرف الأمم وإنما تعرف الدول بأشكال بسيطة ومركبة، وتظل التقسيمات الاجتماعية والدينية والثقافية شؤونا داخلية.

والأمة بالمعني المعاصر لها طابع ثقافي وليس عرقيا ولذلك لاتنطبق اوصاف الامة علي القبائل والجماعات العرقية

الأمة الإسلامية والأمم المعاصرة:

قلنا أن الدول استوعبت الأمم، وقد حاولت الأمة العربية والأمة الإفريقية أن تلتئما فى دول واحدة وعجزت بسبب أزمة الدولة فى العالم الثالث، على عكس الدول الأوروبية التى حسمت هذه المسألة فاستوعب نظامها الديمقراطى كل المكونات الاجتماعية خاصة المهاجرة من مدخل الجنسية، فصارت دولها أمما، كالأمة والدولة البريطانية والألمانية وهكذا. ولكن هذه الأمم اجتماعيا تتصرف فى الخارج كدول، وهو مصطلح لم يرد فى القرآن الكريم. فإذا كانت الأمة الإسلامية تضم كل المسلمين فى العالم (الدول غير الإسلامية بالإضافة إلى المسلمين فى الدول الإسلامية). وكان مفهوم الأمة الإسلامية قد تأكد فى القرآن والسنة بشكل لا لبس فيه، وإذا كان القرآن يحض على تعاون

أعضاء هذه الأمة كما فى قوله ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ۚ﴾ وقوله ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ** ۖ **وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ۚ﴾، وقوله ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ** ۚ **وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ۖ﴾، إلى غير ذلك مما يؤكد على تماسك هذه الأمة، فإن السعى إلى وحدة الأمة الإسلامية كان هدفا أسمى لجميع المفكرين المسلمين عبر العصور. ورأى بعضهم أن وحدة هذه الأمة قد تحقق فعلا فى التجربة التاريخية منذ أنشأ الرسول دولة المدينة تجسيدا لأحكام القرآن الذى ظل يتنزل على الرسول فى المدينة ١٣ عاما حتى انتقاله إلى رحاب ربه، ثم صارت قبلة هذه الأمة السياسية هى دمشق الأموية ثم بغداد العباسية ثم القاهرة لأكثر من قرنين ثم انتقلت الخلافة إلى العثمانيين حتى قرر كمال أتاتورك إلغاءها فى مارس ١٩٢٤ فظن البعض أنه لابد من إعادة إنشاء قبلة جديدة لأمة إسلامية واحدة. وإذا كان البحث لايزال جاريا عن عاصمة هذه الأمة، فإن ثقة البعض لا تتزعزع فى وجود الأمة الإسلامية كحقيقة ليس فقط إيمانية وإنما أيضا كحقيقة عملية حيث تضم كل المسلمين فى كل أركان الأرض. فأصبح المسلم تابعا لأمته الدينية والعقدية، مع تبعيته لأمته السياسية، فإذا تناقض الولاء للأتنين فأيهما يغلب؟.

هذه الفرضية النظرية حدثت بالفعل عندما احتلت بريطانيا مع الولايات المتحدة العراق عام ٢٠٠٣، ففكر الشباب البريطانى المسلم أن ينضم إلى المقاومة العراقية للاحتلال البريطانى، وتم القبض على بعضهم بتهمة الخيانة العظمى وكانت العقوبة السجن المؤبد. ويبدو أن الشاب المسلم البريطانى يعتبر نفسه مسلما أولاً خاصة إذا كان قد وفد إلى بريطانيا واكتسب جنسيتها مباشرة أو عن طريق والديه. أما الشاب البريطانى المولد فقد يكون ولدلأب مسلم، أو اعتنق الإسلام، فكان الإسلام تاليا لجنسيته البريطانية. كما يبدو أن هذا الشاب

قدر أن هذا التعارض بين انتمائه للأمة الإسلامية التى تحتم عليه الانضمام إلى المقاومة العراقية، وانتمائه إلى الأمة البريطانية وهو ما يلزمه بأن يكون ولاؤه للأمة البريطانية، فلا يحارب جيشها: ولكن الشاب البريطانى رأى أن هناك تناقضا بين الأمة الإسلامية، أمة الآخرة التى سعى إلى مساندتها وهى تقاوم العدوان البريطانى، وبين الأمة البريطانية، أمة الدنيا، وعند الخيار بين الدنيا والآخرة،اختار الآخرة والأمة الاسلامية فتقبل حكم القضاء البريطانى بنفس راضية.

هذه الثغرة، بين أمة الدنيا وأمة الآخرة، نفذت منها المؤامرة التى جلبت الشباب المسلم من أوروبا بتشجيع الحكومات الأوروبية وقدمت لهذا الشباب المسألة بمنتهى البساطة: تنظيم يحسم وضع منتصف الطريق الذى سارت عليه التيارات الإسلامية الأخرى نحو استعادة الخلافة، ولكن التنظيم اعتمد على نصوص القرآن واعتمد أصل الدين وحقق دولة الخلافة التى تدعو إليها كل التيارات الإسلامية، كما يغذى حلما قديما عند أهل التكفير والهجرة الذين هجروا المجتمع الكافر إلى مجتمع مؤمن ولذلك تردد البعض فى تكفير هذه الجماعات رغم القسوة التى تستخدمها فى عملياتها مقرونه بأسم الله.

ونحن نعتقد أن الأمة الإسلامية أمة تجمع كل المسلمين فى كل مكان فرابطها الإيمان والإسلام، ويقابل هذه الأمة أمة تجمعها المسيحية ولكنها لاتقول بذلك لأن أوروبا توزعت بين دول أمم، وأما اليهود فيقولون أنهم شعب وليسوا أمة والدولة هى المطلوب أن تكون يهودية وليس الأمة التى لايدعونها.

ويقابل الأمة الإسلامية بنفس السياق أمم العقائد الأخرى كالشنتوية اليابانية والكونفوشية الصينية والبوذية،والهندوس والسيخ والتاوية وغيرها، ولكن أتباع هذه المعتقدات يقدمون أنفسهم خارج دولهم الأصلية باسم دولهم، ولم يدع

أحدهم أن مجموعهم يشكل أمة دينية، وينطبق نفس الشئ على الذين لا يعترفون بأى دين وتبلغ نسبة هؤلاء جميعا أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية.

ولذلك نعتقد أن الأمة الإسلامية أمة قرآنية يلهج أبناؤها بنفس التراتيل والصلوات ويتجهون فى صلواتهم إلى قبلة واحدة، ويقرأون كتابا واحدا ويصومون شهرا واحدا محددا هو شهر رمضان ويحجون في تاريخ محدد. ولبقية الشرائع السماوية والأرضية مناسك وأركان خاصة بها يشترك فيها كل من يدين بها. فإذا نزلت الأمة الإسلامية من السماء إلى الأرض وجدت الأرض وقد ازدحمت بالأمم الأرضية السياسية وهى فى نفس الوقت دول، فكيف يتعامل السامى مع الأرضي وأمة المثل والقيم مع أمم لها طابعها الثقافى والديمغرافى، حيث تتوزع الأمة الإسلامية، من خلال أعضائها على هذه الأمم/ الدول الأرضية التى تحكمها قواعد قانونية وسياسية؟.

الواضح لدينا أن قيم الإسلام يجب أن تنعكس على سلوك المسلمين فى الدول المختلفة بحيث يكونون قدوة فى هذه القيم وأن يسهموا بها فى حضارة الدول التي يقيمون فيها، فالمسلمون أتباع الإسلام، وليسوا حجة عليه بل الإسلام حجة على أتباعه ومعتنقيه.

فى التطبيق العملى عندما اتخذت بريطانيا قرارها بغزو العراق وعندما قرر العراقيون مقاومة الغزو صارت المسألة قانونية، فنحن إزاء عدوان بريطانى غير مشروع ضد دولة من حقها أن تقاوم الغزو وكل ذلك وفق القانون الدولى، وهذا الحق معقود للعراقيين أولا، ثم يجوز للأجانب مساعدتهم فى مقاومة الغزو فى قضية عادلة.وهي عادلة أيضا في الأمة الاسلامية والقرآن.

ونفس الشئ ينطبق على أفغانستان التى استغل فيها الإسلاميون لمقاومة دولة "شيوعية ملحدة" مثلما قدمتها واشنطن للاسلاميين كما لو أنه لو

كانت دولة غير شيوعية ملحدة فإنه لا يجوز مقاومتها، فقد سبق لفيتنام أن صمدت أمام الغزو الأمريكى عام ١٩٦٥ وساند حتى الأمريكيون قضية فيتنام العادلة، بل لم تجد المحاكم الأمريكية غضاضة فى إسقاط العقاب عمن فر من الجندية مادامت الحرب غير مشروعة قانونيا وأخلاقيا ولم تتم إثارة أية حجج دينية، حيث كانت واشنطن حريصة على ابتداع الحرب المقدسة الإسلامية ضد موسكو "الملحدة" لكل المسلمين كجزء من حرب واشنطن ضد موسكو تماما كما استنزفت موسكو وبكين القوة الأمريكية فى كوريا وفيتنام.

لقد اشترك فى المقاومة الفلسطينية مع القوميين إسلاميون وعلمانيون ولبراليون ويساريون وشيوعيون من جميع الجنسيات على أساس أنها قضية شعب تعرض لمؤامرة كل القرون وهى المشروع الصهيونى. على العكس من ذلك وجد بعض الإسلاميين حرجا فى تقبل مشاركة دول إسلامية فى التحالف العسكرى الدولى ضد العراق بعد غزوه للكويت عام ١٩٩١ خاصة وأن التحالف تحت قيادة الولايات المتحدة الداعمة لإسرائيل المغتصبة للأقصى.

قصة الخلافة الإسلامية:

تصر كافة التيارات الإسلامية بدرجات مختلفة على أن الأمة الإسلامية أمة واحدة ويجب أن تستعيد قيادتها للعالم تحت خلافة إسلامية.

هذا الشعار خيالى لسببين جوهريين: السبب الأول هو أن فكرة الخلافة كانت قصيرة الأجل وانحصرت فى خلفاء الرسول ﷺ الراشدين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وبعد على حولها معاوية إلى ملك عضوض وحصرها فى بنى أمية لأكثر من تسعين عاما . صحيح أن معظم الفتوحات تمت على يد الأمويين ودمشق عاصمة الدولة الإسلامية كلها، لكن مصطلح الخلافة لم يكن دقيقا، إلا إذا قصد أن تكون خلافة داخل بنى أمية. ثم جاءت الدولة العباسية

واتخذت من بغداد مقرا وأسمت نفسها الخلافة العباسية وحصرت توارث الحكم فى أسرة بنى العباس، فبغداد عاصمة الدولة الإسلامية أما الخلافة فكانت طريقة تداول السلطة، وإن اعتقد المؤرخون أن الخلافة العباسية كانت مركز العالم الإسلامى وتعمل باسمه وتنفذ الأقطار الإسلامية توجهات الخليفة وهو الذي يعين الولاة لكل الأمصار الإسلامية. وعلى كل حال انتهت الخلافة العباسية بهجوم المغول ومقتل آخر الخلفاء العباسيين المستنصر بالله احمد عام ١٢٥٨ ميلادية حيث نقلت الخلافة الرمزية إلى القاهرة بعد أن قضى ولاتها: بيبرس وقطز على الهجمة المغولية، حتى نقلها الأتراك العثمانيون إلى الآستانة بعد غزوهم لمصر عام ١٤١٧، وكان للخليفة مواقف مؤسفة إبان الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ والغريب أن منصب الخليفة تم استغلاله لصالح الدولة العثمانية، ومع ذلك عندما ألغاه كمال أتاتورك واتجه بالدولة إلى العلمانية أثار المسلمون زوبعة كبرى بأن العالم الإسلامى صار بلا قبلة سياسية، فبدأت المؤتمرات الإسلامية للبحث عن قبلة جديدة. (أنظر التفاصيل فى كتابنا: أصول التنظيم الإسلامى الدولى– القاهرة ١٩٨٨).

معنى ذلك أن فكرة الخلافة فكرة عاطفية غير واقعية وغير قابلة للتحقيق إلا فى ظل دولة مركزية تحكم الدول الإسلامية ويتم فيها تداول السلطة عن طريق الخلافة الراشدة، وهذا مستحيلفي الوضع الراهن للمجتمع الدولي الذي فقدت فيه معظم الدول الاسلامية اقدارا من استقلالها عن مراكز النظام الدولي.

السبب الثانى: هو أن العالم منقسم إلى دول، والدولة هى شخص القانون الدولى، ويمكن لعدد من الدول الإسلامية أو العربية أن تنضم إلى اتحاد كونفدرالى أو فيدرالى وهذه الاتحادات لها طابع سياسى وليس لهاطابع ديني، وحتى منظمة التعاون الإسلامى التى تضم كل الدول الإسلامية هى منظمة

إقليمية سياسية وليست منظمة دينية، بل كان إنشاؤها حتى اليوم مثار تساؤل حول رابطة الدين ومدى كفايتها لإنشاء منظمة إقليمية وهذا يفسر سر عدم الاهتمام الأكاديمى بها فى الغرب وفى العالم الإسلامى، فى ظل استتباع الغرب للدول الإسلامية الأعضاء فى المنظمة.

عندما أصدر الشيخ علي عبد الرازق كتابه "الاسلام واصول الحكم" واعتبر ان الحكم واشكاله مسالة اجتهادية لاعلاقة لها بالعقيدة هاجمه الازهريون واعتبروه منشقا علي الازهر لان موقفه فسر علي انه من قبيل التحدي للملك فؤاد الذي كان يطمح ان ينافس عبد العزيزأمير نجد حينذاك وزعماء الهند في عشرينيات القرن الماضي علي الخلافة بعد الغائها في الاستانة ، فكانت دعوته تشكيكا في وجودها أصلا في الدولة العثمانية حتي تلغي ثم يعاد احياؤها.

هذا رأي قد يصدم التيارات الاسلامية لكن عزائي أنه جاء من متخصص يحرص علي الدين وليس من شخص يغمز في الدين من قناة الخلافة مثل بعض الكتابات العلمانية او اليهودية والمسيحية(انظرلمزيد من الايضاح كتابنا سالف الذكر وكتاب سليمان فياض حول الوجه الآخر للخلافة علي العكس من اليهودي الذي ينكر الخلافة في سياق الكيد للاسلام انظر كتاب كريمر حول الخلافة الإسلامية أو الإسلام مجمعا عام ١٩٨٦ وردنا عليه في كتاب الأصول الصادر بالقاهرة عام ١٩٨٨). ولكن هذا الراي يحتم السعي إلي التعاون بين الدول الإسلامية والدفاع عن الإسلام ضد خصومه ، فالإسلام باق إلي يوم الدين حتي لو فني المسلمون طرا.